دماء المسلمين بكل أرض، تراق رخيصةً بغياب الخلافة

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافة أن تزولا

ولو زالت لزال الخير عنهم ... ولاقوا بعدها ذلا ذليلاً

وكانوا كاليهود أو النصارى ... سواء كلهم ضلوا السبيلا

هذه الأبيات قالها الصحابي حنظلة الكاتب، في الفتنة التي سبقت مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأيم الله كأنه يرى أيامنا هذه، حيث يعيش المسلمون في ضنك وضيق، وقهر وذل، وتشتت وضياع. أموالهم منهوبة، بلادهم مسلوبة، دماؤهم مُراقة، وأعراضهم مُستباحة. وُلِّي عليهم حكام رويبضات، وأفتى لهم علماء عبدة الدرهم والدينار ضلوا وأضلوا من بعدهم عباد الله.

لكن الفارق، أن المسلمين حينما قيلت هذه الأبيات، ظلوا يعيشون في ظل الخلافة لثلاثة عشر قرنا لاحقة، رغم ما طرأ عليهم من فتن وانتكاسات. لكنهم بقوا ضمن حصن الخلافة المنيع. فتحوا البلاد ونشروا فيها نور الإسلام، وأنجبت الأمة على مدى هذه السنوات قادة وخلفاء عظاماً كصلاح الدين ومحمد الفاتح، وعبد الحميد رحمهم الله جميعاً.

هؤلاء القادة، وهؤلاء الخلفاء، الذين عملوا طوال حياتهم لحفظ حدود الله، ورعاية المسلمين بأحكام الله، خلّد التاريخ حرصهم على كرامة الأمة وأبنائها. والقصص في هذا الباب مستفيضة كثيرة تدلل على أن الخلافة قد صانت دماء المسلمين، وأنزلتها قدرها.

فالله سبحانه قد كرم المسلم، وجعل دمه حراماً. فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار**» [رواه الترمذي]. وقد جعل الله سبحانه حرمة الدم المسلم أعظم من حرمة الكعبة.

هذه الأحكام الشرعية فهمها الخلفاء المسلمون ووضعوها موضع التطبيق، وكانوا يرون رعايتهم للمسلمين، أمراً عظيماً يحملون مسؤوليته كأمانة من رسول الله ﷺ. ولهذا كانت جيوش المسلمين تتحرك، وتعلن الحرب فوراً حين يتعرض أي مسلم لأذى مهما كان. فقد فتحت عمورية لأجل عرض امرأة مسلمة، وحرك الحجاج جيشه إلى سمرقند نصرة لثماني عشرة سفينة للمسلمين كانت تبحر إلى العراق، تعرضوا لغزو القراصنة. فكانت نتيجة نصرته لدماء المسلمين أن فتح بلاد السند بأكملها، ونشر في ربوعها الإسلام. وكان ذلك على يد القائد المسلم محمد بن القاسم الثقفي ابن عم الحجاج وقائد جيشه.

ذكر ابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ" وابن كثير في "البداية والنهاية" في أحداث سنة 463 للهجرة: خرج ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال، أكثر من مائتي ألف... ومعه ألف وأربعمائة عجلة وعربة تحمل السلاح والمجانيق. وكان يعزم على إبادة الإسلام وأهله وأقسم على ذلك. واضطربت ممالك الإسلام واشتد وجلهم، غير أن الله قيّض لدينه السلطان ألب أرسلان فخاض الحرب بعشرين ألفاً، وأوصى خطباء المساجد بالدعاء وقت الجمعة للمجاهدين، فما انتهت المعركة إلا بهزيمة الروم هزيمة ساحقة أُسِر فيها قائد الروم، وأحضر إلى السلطان الذي أمر ببيعه في معسكر المسلمين، فطافوا به في المعسكر والحبل في عنقه يُنادى عليه بالدرهم والفلوس، فما اشتراه أحد حتى انتهوا في آخر المعسكر إلى رجل فقال:

إن بعتمونيه بهذا الكلب أشتريه، فأخذوه وأخذوا الكلب، وأتوا بهما السلطان أرسلان، وأخبروه بما صنعوا به وبما دُفع فيه، فقال: الكلب خير منه لأنه ينفع، وهذا لا ينفع..." منقول بتصرف.

أجل بهذه الأفعال المليئة بالعزة والسؤدد يكون الرد على كل من تسول له نفسه مسّ أي مسلم بأذى، وهذا ما نفتقده بغياب الخلافة، فلا جيوش تدافع عن الأمة، بل هي رغم العدد والعتاد، ومليارات الدولارات التي تنفق عليها كل سنة، مكبلة، تستغل في قتل المسلمين وذبحهم.

بغياب الخلافة رخص الدم المسلم حتى صار سفك دمائنا وسيلة لتسلية المنحطين والشواذ والمتطرفين من كل عصبة. ففي الشهر الماضي لجأ 1500 مسلم لمجمع كنسي في إفريقيا الوسطى لحمايتهم من عصابات القتل النصيرية. صرنا نحتمي بالكنائس بغياب الخلافة، فأين كنا وأين صرنا؟!!

بالأمس بلغ حقد أمريكا أن تقتل 150 طفلاً من حفظة كتاب الله في أفغانستان، وروسيا ترتكب مجزرة بحق مسلمي الشام فتقتل العشرات منهم بالكيماوي في دوما، وكلا المجرمين لم يرتكب جرائمه بحق المسلمين إلا لأنه موقن أن لا حامي لهم، فقد غاب الإمام الجُنّة الذي يُقاتل من ورائه ويُتّقى به، وحكم الأمة نعاج يمموا خطاهم نحو أمريكا، وصارت كل تحركاتهم إنما هي جزء من الحرب على خير أمة.

ففي الأمس تلاحق الشرطة التونسية شاباً حتى ألقى بنفسه في الواد، ولما استنجد بهم صرخوا في وجهه "تعلم السباحة" فمات غرقاً!

وفي الأردن قُتلت بتول حداد حين أسلمت، ووقف حكام البلد أذلاء غير آبهين بحمايتها هي وغيرها ممن اهتدوا للإسلام.

في مصر يُحكم على العشرات يومياً بالإعدام ظلماً، لتكريس الخوف والذل في قلوب مسلمي مصر، وإجبارهم على القبول بنظام السيسي المجرم.

في فلسطين يُزج بالشباب المسلم إلى مواجهات غير عادلة مع كيان حاقد مجرم، يستهدفهم بكل سهولة بأسلحته الفتاكة. وحكام الأمة وعلماؤها وإعلاميوها صامتون كالأموات عن الحل الجذري الذي يحرر فلسطين وينقذ أهلها من بطش يهود، بل هم يشجعون التحركات الشعبية التي تضع أهل فلسطين الأسرى في مواجهة مع جيش يهود وتُسلمهم له تسليم الغنم للذئب تقاتله!

ينشغل الحكام باعتقال المخلصين وقطع أرزاقهم والتضييق على كل مخلص حر، ويتركون الأمة لقمة سائغة لعدوها يمزقها وينكل بها كيف يشاء.

ولو كان للمسلمين خلافة وخليفة لما تجرأ علج على قتل مسلم، أو انتهاك عرض مسلمة...

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: 37]

كتبته لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

بيان جمال